المرأة والثورة الجزائرية

أ. محمد غربي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ جامعة سيدي بلعباس

إن الباحث المتصفح لبعض المراجع التاريخية، سيدرك لا محالة الوضعية الاجتماعية والثقافية للمرأة الجزائرية خلال فترة الاحتلال الفرنسي خاصة وان هذه الفترة تميزت بالركود والجمود الفكري، وما صاحبها من شعور بالخوف وعدم الشعور بالأمان والاستقرار بسبب سياسة البطش التي اتبعها الاستعمار الفرنسي تجاهها.

واذا بحثنا عن حقيقة ذلك في التاريخ، وجدنا اكثر من سبب. فمنها ما له علاقة بالمستعمر الذي كان يسعى الى طمس المعالم والقيم العربية الاسلامية الجزائرية. ومنها ما يعود الى المجتمع الجزائري الذي كان ينظر الى الثقافة الفرنسية ، على انها غزو للعائلة الجزائرية التي بقيت محافظة على التقاليد1 و خوفا من انحراف البنت، وانسلاخها عن المجتمع الجزائري المحافظ على هويته وقيمه. ويعود بعضها إلى سيطرة العادات والتقاليد البالية على العامة من الناس، التي كانت تحرم فكرة تعلم المرأة والتي زكاها بعض رجال الطرقية، بل وبعض المثقفين الذين رأوا في تعليمها سبيلا إلى الإنحراف والفتنة .

إضافة إلى الوضعية الاجتماعية المأساوية للمرأة الجزائرية، التي عانت من شظف العيش، واضطرارها إلى العمل خادمة في بيوت الكولون مقابل أجور زهيدة بسبب انعدام فرص العمل 2 فخلال هذه الفترة كانت حوالي 3000إمرأة في القصبة، تقوم بغسل واجهات الدكاكين والسلالم والعمارات مقابل مبلغ لا يتجاوز ثلاثة فرنكات للساعة3 .

لكنبعض الجمعيات النسوية تمكنت من استقطاب المرأة الجزائرية و أوجدت إطارا خاصا لتفجير طاقاتها، منها:

1 ـالإتحاد الفرنسي ـ الإسلامي لنساء الجزائر الذي أسس في أبريل 1937. ضم 36 امرأة نصفهن جزائريات. وقد أكد محضر الإفتتاح الذي حررته الأوربيات ، بأن الإتحاد هو تقارب بين بين النساء الأوربيات والنساء الجزائريات، يجمع بينهن ويمنع كل اختلاف بين الطائفتين...إنه اتحاد الصراحة، الأخوة الإنسانية، لأنه يستطيع أن يحطم حاجز الإختلاف بينهن،...إن المبادرة قد تمت وأدركنا أن اهتماماتنا المادية، العائلية أو الإجتماعية كانت واحدة. وبسرعة افقنا على مد يد المساعدة للنساء الجزائريات المعوزات، بهدف مساعدتهن والإتصال بهن لمعرفة ما ينقصهن وما يحتجن إليه، في هذا الإتحاد لا مجال لأي عقيدة أدبية أو سياسية، يمكن لها أن تعرقل حركتنا ، وللإشارة فإن معظم 18 امرأة جزائرية مؤسسة للإتحاد، ينحدرن من عائلات ميسورات الحال، ويستفدن من دعم الحكومة العامة4 ترأست النادي السيدة قوتييه، فأنشأت مستوصفا لتقديم المساعدات الطبية.وفي سنوات 1944 و 1946 و 1947، أنشأ الإتحاد أقساما لتعليم الفتيات، ونظم تظاهرات ثقافية، ومخيمات صيفية لفائدة مناضلات الإتحاد5. إلا أن مجهوداته ظلت محصورة في الميادنالإجتماعي.6

2 ـإقتصرت مطالب مناضلات "جمعية اتحاد نساء الجزائر"، على الميادين الاقتصادية والاجتماعية حيث وجهت رسالة7إلى والي الجزائر العام للتنديد بارتفاع أسعار الخبز. وقدمت نساء مدينة سيدي بلعباس مذكرة لسلطات المدينة تطالب بالتعليم الكلي لأبنائهن،وظهر تأييد الأوربيات محتشما، لأن أبناءهن كانوا متمدرسين، وبالتالي فمطلب كهذا لا يهمهُن

3 ـ "جمعية النساء المسلمات الجزائريات" تأسست في 24جويلية سنة 1947 بالجزائر العاصمة.(كانت جناحا لحركة إ ح د).

قدمت الجمعية المساعدات الطبية، ونظمت لقاءات حول النظافة، والوقاية الصحية للأطفال، وطرق العلاج الحديثة وعرضت مسرحيات ذات أهداف سياسية واجتماعية باللغة العربية في مدينة الجزائر وتلمسان ووهران8، ونظمت عدة تظاهرات ثقافية واجتماعية كحفلات الزواج أو خطوبة أو أي اجتماع نسوي... فكانت تنهي هذه التظاهرات برفع العلم الوطني، والمطالبة باستقلال الجزائر. ومن بين مناضلات الجمعية، أذكر على سبيل المثال لا الحصر مليكة مفتي ونسيمة حبلال و جميلة بنت نحند و نجد علجية نور الدين وباية لعراب9.

النشاط الإجتماعي للمرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية:

تشكل المرأة في نظر جبهة التحرير الوطني قوة هائلة وذات أهمية أساسية في دعمها ومساندتها، لذلك وجدت المرأة متنفسا لها في ثورة الفاتح نوفمبر التي أطلقت العنان للقوى الكامنة فيها، واعتبرتها سندا قويا لها. و ضرورة تفرضها متطلبات الثورة التحريرية. إلا أن جملة من التساؤلات كانت تفرض نفسها على الرجل والمرأة، خاصة وان الواقع كان يفرضها:

1 ـ طبيعة العنصر النسوي الذي كان يفضل الابتعاد عن المحتل، لمحاولته تجريد المرأة الجزائرية من الحجاب، ليتسنى له القضاء على عادات وتقاليد المجتمع الجزائري النابعة من قيمه العربية الإسلامية

2 ـ أساليب الاستعمار الوحشية المتمثلة في الاغتصاب والتعذيب بمختلف الأساليب .وقد بلغ تعسف المستعمر في اضطهاده للمرأة الجزائرية درجة أنه يحاكمها أمام المحكمة القضائية لمجرد أنها شوهدت وهي تحطب حزمة من الحطب في الغابة بل كان يسجنها ويرهقها بدفع الضرائب تكفيرا عن فعلتها10.

4 ـانعدام وجود المرأة في الحياة العملية و انحصار عملها داخل البيت لا غير، بسبب عدة عوامل منها الفقر والبؤس والتنصير والشعوذة...

5 ـانتشار الأمية بين الشرائح المختلفة للشعب، وخاصة لدى المرأة الجزائرية التي لم تكن أحسن حالا من الرجل. إذ سعى الاستعمار إلى منذ بداية الاحتلال إلى طمس وتدمير مقومات الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية11. لكن تطور الثورة الجزائرية أفرز وضعا جديدا دفع بقادة الثورة إلى الدراسة المتأنية للعدد الهائل من الضحايا الجزائريين في المدن والقرى.ودفع بها إلى تعميم مشاركة المرأة في الثورة الكبرى بمختلف اشكالها. حيث أقبلت عليها بأعداد هائلة، فاندفعت تؤدي واجبها بكل ثبات وصدق، رغم الصعوبات الذاتية والداخلية الصادرة من طرف الاسرة في بادئ الأمر .

ويمكننا إبراز الدور الإجتماعي الذي لعبته المراة في الثورة من خلال بعض الشهادات التي أدلت بها بعض المجاهدات، حيث تقول السيدة فاطمة علال: " في بداية الثورة...كانت النساء تتوزع الأعمال التي تتعلق بتموين جيش التحرير الوطني، تهيء الكسكس والكسرة وتعد(الفريك)و(المرمز)، وتخيط مختلف الأشياء التي يحتاجها جنود جيش التحرير الوطني مثل القشاشيب والجلابيات...". وتضيف قائلة:" عندما اشتد البطش الإستعماري، وتعرض الرجال للقتل والنفي والتشريد، والتحق معظمهم بصفوف جيش التحرير الوطني، حلت النساء محلهم في كل الاعمال التي كانوا يقومون بها. فأصبحن

يقمن بتموين جيش التحرير الوطني، حيث يجمعن مختلف المؤن من كسرة وكسكس وملح و فلفل وزيت وغير ذلك في أكياس يحملنها في (زنابيل) ويغطينها بالنفايات حتى لا يكتشفها جنود العدو. ثم يحملنها على الحمير، ويتجهن إلى مراكز استقبال المجاهدين "12.

لم يقتصر الدور الإجتماعي للمرأة الجزائرية على الخياطة، وتموين جيش التحرير الوطني،بل قامت بدور المرشدة الإجتماعية في الوسط النسائي،سواء في القرى أو الأرياف. فكانت تستغل المناسبات الكثيرة التي تسمح بتجمع النسوة مثل أفراح الزواج والختان، والوفيات وزيارة الموتى في المقابر13. وفي ذلك تقول السيدة زكية بوضياف14: " كنا نعطي النساء دروسا في التوعية السياسية، بحيث نشرح للقرويات أهمية الثورة وأهدافها، وحقيقة الإستعمارالفرنسي..... كما كنا نعطي دروسا في التربية الاجتماعية، تتعلق بكيفية تربية الأطفال وطريقة معالجتهم ونظافتهم. وكل ما يفيد العائلات في التدابير المنزلية والحياة الصحية."وبممارستها لدورها، أصبحت المرأة الجزائرية تستقبل وتأوي المجاهدين والفدائيين الذين كان " البوليس يبحث عنهم في المدن"15 أثناء غياب زوجها، وتقدم لهم الغذاء والشراب والمؤونة، وتنظف ثيابهم، وتسهر على راحتهم، وتشجعهم بالزغاريد والأغاني الحماسية، لتقوية نشاطهم وإيمانهم وتؤكد المجاهدة "مداني لويزة16" بأن: " النساء اللواتي يستخدمهن الجيش الفرنسي لغسل ملابس الجنود كانت تستولي على كثير من الملابس، وترسل بها لجيش التحرير"

و أشرفت المراة أيضا على جمع الإشتراكات و التبرعات والقيام بمهمة الدعاية والإعلام وخياطة الملابسوالقمصان العسكرية بمختلف أشكالها وأنواعها وأحجامها17 وصنع الأعلام الوطنية .

ومن حيث الدور الذي لعبته في ميدان التمريض، تقول السيدة عائشة قليفي:" أنشأ لنا الأمين خان مدرسة صغيرة في الجبل، وكان يعطينا دروسا خاصة في النجدة، نظرا لعدد الجرحى، وبعد فترة التدرب

على التمريض قاموا بتوزيعنا على النواحي حيث كوّنا فرقا يصل عددها إلى إثنين أو ثلاثة مهمتها علاج المجاهدين المرضى بعد وقوع المعارك "18 وتضيف مريم بلميهوب قائلة: " لم أكن أعالج فقط المقاتلين الجزائريين، بل كنت أعالج أيضا كثيرا من المدنيين، الذين كانوا في حالة يرثى لها...أنهكهم الجوع والمرض...لم أرى في القرى والأريافالتي مررت بها سوى المرض، والجوع، والبؤس ... ولذا كنت أهتم بمعالجة السكان المدنيين العزل الذين ذهبوا ضحية قنابل الطائرات، وضحايا هجومات الجيش الفرنسي، الذي كان يضرم النيران في المنازل والغابات، ويحرق قرى باكملها بعد أن ينتهي من ذبح نسائها وأطفالها وشيوخها... " . 19أما إذا صعب الحصول على بعض الأدوية فتقول السيدة يمينة شراد:" التحقت بمدرسة التمريض بسطيف سنة 1950بعد أن تحصلت على مستوى السنة الرابعة متوسط، وتخرجت منها ... كممرضة متخصصة. وعملت كممرضة...,أثناء ذلك بدأت اتصالاتي الأولى بجيش التحرير الوطني حيث كنت أقدم لهم المساعدات الضرورية عندما ينقلهم العدو إلى المستشفى للعلاج، وخاصة فيما يتعلق بتزويدهم بالدواء، وفي نفس الوقت كنت أخرج مع زميلاتي كمية كبيرة من الدواء بطرق مختلفة نعطيها للمسبلين ليوصلوها إلى المجاهدين في الجبال."20 .

وما كادت تحل سنة 1956، حتى ضمّت جبهة التحرير الوطني في صفوفها مختلف الشرائـحالاجتماعية من معلّمات وممرضات وطبيبات وطالبات و عاملات تتراوح أعمارهن بين 16 و 30 سنة ، فتطورت أفكارها وأثبتت كفاءتها في تحمل الصعاب والمسؤوليات المقدسة . فقدمت للثورة كل ما تكسبه من غال وثمين21

لم يقتصر دور المرأة على التمريض فقط، بل تعداه إلى تقديم النصيحة، و توعية السكان بوضعهم المعيشي. فأصبح عملهن سياسيا واجتماعيا وصحيا. وكان يتطلب أحيانا المكوث مدة طويلة بين المجاهدين والمدنيين خاصة عقب الغارات الاستعمارية الفرنسية بالطائرات والمدافع. ولقد سقط الكثير من النساء في ميدان المعركة نتيجة تواجدهنّ بها.وفي تقرير لصحافي أمريكي استدعاه لاكوست يقول:" ...صنع الجزائريون شبكة بالغة الدقة، والقوة أقلقت فرنسا، وخلقت الرعب في جنودها...شبكة ضمت جميع فئات الشعب، من أطفال إلى شباب، يضاف إليها العدد الهائل من النساء اللاتي غيُّرت الحرب التحريرية نفسيتهن، وأطلقتهن في صميم المعركة مجندات، لا يهبن الموت. إنهن في كل مكان في المدينة، والقرية، وأعالي الجبال ... فهذه سكرتيرة لقائد، وتلك ممرضة، وأخرى ناقلة للعتاد و الطعام، وغيرهن كثيرات، ممن يعملن في المخابرات، وتقصي الأنباء22... وكثيرا ما برهنت في العديد من الوقائع على قونها وصلابة جأشها، وإقدامها على التضحية. ونذكر على سبيل المثال الشهيدة "الآنسة مليكة" الممرضة في الولاية الخامسة التي قاتلت باستماتة وهي تدافع عن مرضاها23 ، وجميلة بوحيرد التي ألقى عليها الجيش الفرنسي القبض وحاكمها بالتاريخ 26 أبريل 1957.

ويؤكد أحد الصحافيين الأمريكيين على لسان لاكوست قوله "إننا عندما نشاهد امرأة محجبة لاندري ما إذا كان ذلك حفاظا على التقاليد، أو للتخفي في سبيل تنفيذ أمر ما على أفضل وجه.... واعترف الجنرال "ماسو" Massu بدورها البارز: " أصبحت ... تشكل شبكة حقيقية، بفضل أجهزتها وجمالها الفاتن والبراءة المصطنعة في سلوكها، استطاعت بكل سهولة ان تخترق الأوساط التي تريدها دون إثارة انتباه العدو ولاسيما في المرحلة الأولى من الثورة التي كثر فيها الإحتراز والشك "24

وقد أشادت الثورة بعمل المرأة البطولي من خلال ما ورد في ميثاق الصومام: " كانت مساعدة الطلبة والطالبات كبيرة النفع لا سيما في الميدان السياسي والميدان الإداري والميدان الصحي"25مما يدل أن المرأة لم تخيب قادة جبهة التحرير الوطني وطموحاتهم. كما حي المؤتمر بكل افتخار واعتزاز الدور الذي لعبته المرأة الجزائرية حيث قال:" توجد في الحركة النسائية إمكانيات واسعة تزداد وتكثر بإطراد. وإننا نحيي بإعجاب وتقدير ذلك المثل الباهر الذي تضربه الفتيات والنساء والزوجات والأمهات في الشجاعة الثورية...إننا نحيي جميع أخواتنا المجاهدات اللواتي يشاركن بنشاط كبير... في الكفاح المقدس من أجل تحرير الوطن "26.

حاولت السلطات الفرنسية سحب البساط من جبهة التحرير الجزائري، لحرمانها من إحدىركائز عمقها الثوري. بإجراء تعديلات في نظام الولاية، فأصدرت قانون 11جويلية1957 الذي يسمح للمرأة

المتزوجة بالحضانـة القانونية لأولادها في حالـة فقدان الأب. ثم جاء قانون 04 فبراير1959 الذي قضى على الإكراه في الزواج من طرف الولي.

الفهرس

1 ـ د. ركيبي، (عبد الله)، الشعر الديني العربي الحديث، الطبعة 1،الشركة الوطنية للطبع والتوزيع، الجزائر، 1981، ص60.

P. (Boyer), L'Evolution de l'Algérie Médiane de (1830-1956). Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien Maison-2 Neuve, 1960. P 273

Chevalier(J.L) , OP. cit, p 85-3

Sai. (Fatma-Zohra), Mouvement national et question féminine des origines à la veille de la guerre de libération-4 nationale, C.R.I.D. EN SCIENCES SOCIALES ET Humaines. Oran. 1984. P 59.

Document Algérien, N^0 DU 1948, PP 238- 239- 240–5

6 ـ ما يؤخذ على هذا الإتحادأنه ظل حبيس يعض أحياء العاصمة، ولم يصل إلى المرأة في مداشر وقرى الجزائر.

7 Alger Republicain, N^0 2483. DU 14/ 07 /1951-

8 ـ ابن العقون، (عبد الرحمن بن براهيم)، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، الفترة الثالثة 1947–1954، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 167.

9 ـ بركات، أنيسة نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، الطبعة الأولى، دار القصبة للنشر 1999،ص 23.

Julien (Ch. A), Afrique du Nord en Marche, Ed. 3ème. Paris, 1972, P 96.-10

11 ـ د. تركي، (رابح) ، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته، وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ص92 -93.

12 ـ علال، (فاطمة)، في حديث لمجلة أول نوفمبر، 1984، الجزائر، ع 69، ص 26.

13 ـ بوالطمين، (الأخضر جودي)، لمحات كما شاهدتها وقرأت عنها، الطبعة الأولى، قسنطينة، دار البعث، 1981، ص 281 .

14 ـ بوضياف، (زكية)، مجلة أول نوفمبر، 1983، عدد61، ص93.

15 ـ جغلول، (عبد القادر)، المرأة الجزائرية وحرب التحرير الوطني 1954 -1962، مجموعة مقالات، ترجمة سليم قسطون، الطبعة الاولى، دار الحداثة والطبع والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1983، ص 133 .

El Moudjahd, 46$N^0$40, du 24/04/1956. -16

17 ـ العسكري، (إبراهيم)،لمحات من مسيرة الثورة الجزائرية ودور القاعدة الشرقية، دار البعث للطباعة والنشر319.

18 ـ الملتقى الوطني الأول حول كفاح المرأة الجزائرية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية، 1998، ص 335.

19 ـ هلال، (عمار)، نشاط الطلبة الجزائريين إبان ثورة نوفمبر 1954، لافوميك، يدون تاريخ النشر، ص 128.

20 ـ شراد،(يمينة)، مجلة أول نوفمبر، الجزائر، 1983، ع 62، ص 72.

21 ـ بركات، (أنيسة)، مرجع سابق، ص 47.

22 ـ جريدة المجاهد، ع 18، بتاريخ 1958/02/15، ص 9.

23 ـ قليفي، (عائشة)،مرجع سابق، ص250

24 ـ بركات، (أنيسة)، مسيرة نضال المرأة الجزائرية في الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، في: كفاح المرأة الجزائرية، الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة، الجزء الثاني، المجلد الثاني، ص 252.

25 ـ فرانز (فانون)،سوسيولوجيو ثورة (ترجمة: ذوقان قرقوط)، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1970.ص 52.

26 ـ وزارة المجاهدين، وثائق مؤتمر الصومام، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص 63.